نحـن والتاريـخ

بقلم الدكتور قسطنطين زريق

منشورات دار العلم للملايين

***

من الكتب والمؤلفات مانقبل على قراءته بيسر وسهولة فنلتهمه التهاما سريعا حتى اذا ما انتهينا من مطالعته ألفينا انفسنا امـام متعة هزيلة ، مردها الضحل دون العمق ، والوصف دون الفكرة ، والتبسط والتكـرار دون الايجاز والتركيز . فهذه كتب تستميلنا لمـا نجد فيها من تسليـة او اذا شئت من متعة قريبة .

ومنها مانقف منه عند حد قراءة بعض الصفحات ، لنجدنا بعد قليل اننا نعافها ونتركها لغيرنا لنبحث عن غيرها وذلك لتفاهة الموضوع او ضعف العرض او لركاكة اللغة .

وهناك فئة اخرى من المؤلفات ، تستأثر بنا ، وتملك علينا لبنا ، علـى ماتكلفنا من الجهد في استكمال قراءتها واستيعاب مضمونها . ذلك لمـا فيها من العمق والتركيز في التفكير ، ومن الجودة والابداع في الاسلوب ومن النضج في الاراء والامتياز في الاداء .

من هذه الكتب الاخيرة : « نحن والتاريخ » للدكتور قسطنطين زريق . فهو من المؤلفات النادرة الصدور ، ومن الكتب التي اذا ظهرت تركت دويا بين اصحاب الاختصاص في موضوعها ، وخلفت لدى قرائها ثورة فكريـة بالاضافة الى ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا نحن العرب .

وبالرغم من كل مايبديه المؤلف ، باخلاص كلي من التواضع المعروف عنه ، اذ يقول في مطلع مقدمته : « ليست هذه الفصول التي اتقـدم بهـا اليوم الى القراء ... اكثر من مطالب وتساؤلات حول علم التاريخ وفلسفة التاريخ وعلاقة الانسان بماضيه ، وسوى محاولة شخصية ، أحببت ان اشارك بها القارىء العربي » اقول بالرغم من كل هـذا التواضع فان هذه الفصول ولا شك بحث مستفيض في فلسفة التاريخ ، وعرض شامل لقواعد علم التاريخ ودراسة تامة لعلاقة الانسان بماضيه . وكيف لاتكون كل ذلك ، وهي « حصيلة قراءات واسعة في هذا الحقل وتأملات للمسائل التي تبرز فيها » كما يقول الدكتور زريق نفسه ؟

والكتاب ، فوق هذا وذاك ، صرخة في وجه الكثيرين ممن اسـاءوا ويسيئون للتاريخ عامة ، ولتاريخنا العربي خاصة ، ان في نزعتهم الاقليمية او الطائفية او الانعزالية ناهيك عن روح الاستغلال ونزعة الاستهتار .

نعم ان كتاب « نحن والتاريخ » لصرخة تانيب وتقريع لاولئك المتطفلين جميعهم ، فهل لهم ولمشجعيهم من رسميين وشعبيين ان يرعووا عـن غيهم وضلالهم فيتقوا الله في تاريخنا واجيالنا الصاعدة ؟!

ودونكم الان تحليلا لمـا جاء في فصوله العشرة ، وقد بدأها منشئهـا بموضوع « لمـاذا التأريخ ؟ » ويبتدرنا فيه بتوضيح لبس ، يكتنف لفظة « التاريخ » وينساب الى جميع نواحي الموضوع الذي يدور عليه هـذا الكتاب وبعد ان يرينا ترددنا بين اطلاقه على « الماضي البشري » ذاتـه تارة وعلى العلم المعني بهذا الموضوع تارة اخرى ، يعود فيقرر ان الذهن البشري نفسه يتنقل عفوا بين المعنيين دون تمييز دقيق بينهما .

وهذا بالذات مايقع لغيرنا من الاجانب ايضا . واخيرا يعتمد انبطلق هـو لفظـة « التأريـخ » (بالهمزة) على دراسة الماضي « والتاريـخ » (بالالف اللينة) على الماضي ذاته . وانا لنميل الى مجاراته في هذا .

امـا « لماذا التأريخ ؟ » فيجيب عليه المؤلف بقوله : لمعرفة ماضينـا اذ بهذه المعرفة وبمقابلتها بما نحن فيه حاليا نكون مستقبلنا ، ولان في ماضينا مايستوجب التمسك به كما فيه ايضا مايتوجب علينا طرحه .

ووعينا للتاريخ قد جعلنا نهب قوميا مستندين الى ماض وحاضـر فكانت ثورتنا القائمة اليوم ، والتي لابد معها من مجابهة ماضينا ومجابهة الواقع الانساني مع واقعنا ، لنتفهم الاثنين جيدا . وهذا هو في الحقيقة واجب المؤرخ نحو نفسه وغيره . وهذه المهمة تشتد الحاجة اليهـا في ايام القلق والاضطراب والثورة ، اذ تكون النفوس اذ ذاك اقـرب الى التلقي والافـادة .

وفي الفصل الثاني يبحث : « موقفنا من الماضي » ليقرر ان علينا فـي حاضرنا ان نوفق بين ماضينا ، وبين مانحن فيه من ظروف واحوال ، تدفعنا الى الاسراع في التحول ، وان كان في ذلك بعض الصدمـات بالنسبة الى تقديرنا ماضينا .

ومن الامور التي تظهر مع هذه الظروف والاحوال ، يكتفي الدكتـور زريق بسرد الاربعة التالية :

اولها التيار التقليدي : وهو يتميز بالاتجاهات الاتية :

أ ـ القول بان تاريخنا هو التاريخ الاسلامي .

ب ـ الاخذ بالتعليل اللاهوتي للاحداث وتطورها .

ج ـ الميل الى تصديق كل اخبار السلف والركون اليها .

وثانيها التيار القومي : وهو يأخذ بما يلي من الاتجاهات :

أ ـ الاقتناع بالقومية العربية الشاملة .

ب ـ التمسك بالقومية الاقليمية الضيقة .

وثالثهما التيار الماركسي : وهذا يجري في اتجاه معين واضـح

العالم . فالمادة في نظره اصل الكون ، والانسان قد نشأ منها بالتطور والارتقاء فقط ، وليس ثمة قوة فوق هذه الطبيعة ، والمجتمع البشري تطور مع تطور وسائل الانتاج .

ورابعها التيار العلمي : وهو يتوجه الى الماضي دون فكرة مسبقة ، او فلسفة مفروضة ، ويحاول استعادة الماضي من اصوله ثم يسعى الى ربط الحقائق المقررة ، ليستخرج منها صورة الماضي .

وقد تجلى هذا الاسلوب ، كما يقول الاستاذ زريق ، عند اجدادنا من المؤرخين العرب القدماء ، فيما بذلوه من عناية في جمع احاديث الرسول وتجريحها ، ولهذا اقتبس الدكتور اسد رستم تعبيرهم « مصطلح الحديث » فأطلقه على كتابه بقوله « مصطلح التاريخ » فكان عمله مقبولا عند اهل الرأي .

اما في الفصل الثالث فيعالج الدكتور زريق : « ماهية التاريخ والغرض منه » ويخلص منه الى القول بان موضوع التأريخ انما هو السعي لادراك الماضي البشري كله واحيائه ، مع وجوب العلم ان الحياة في سيرها وحدة متكاملة . ونحن نقول : ليت المسؤولين من الرسميين في لبنان يدركون هذه الحقيقة فيوجهون دراسة التاريخ عندنا ، هذه الوجهة في الصفوف الثانوية على الاقل .

وفي الفصل الرابع يطرق موضوع : « صناعة التاريخ » فيحددها بأنها « التكنيك » أي الجهد المنصرف الى غاية معينة والمنضبط بقواعد حققها الاختبار لتكفل تلك الغاية عن أسلم الطرق وانضجها وأوفرها انتاجا . وهذه الصناعة تعرف ، كما يقول الدكتور زريق : « بمثودولوجية التأريخ » او « بمصطلح التاريخ » وهي تعتمد على الخطوات التالية :

١ ـ البحث عن المصادر التي هي على أنواع .

٢ ـ فجمعها .

٣ ـ ثم نقدها وتمحيصها ، بل فحص كل منها للخروج من ذلك الى

٤ ـ الاستنتاج فاستخراج الماضي واخيرا ٥ ـ عرض ماتوصل اليه الباحث ونشره .

ويستطرد الدكتور ليقول : ولئن كان التاريخ علما من حيث التحقيق ، وفلسفة من حيث انه محاولة تفهم كلي وربط للاحداث وتعليل للاسباب والنتائج ، فهو ايضا ادب وفن من حيث العرض والاداء . ولا يفوته ان يلفتنا الى ان صناعة التأريخ بحاجة ماسة الى معارف عديدة ولغات شتى .

اما في الفصل الخامس فيبحث « فضائل الصناعة التأريخية » ويحددها بما يلي : (١) الجد والمثابرة (٢) الشك والنقد (٣) الدقة والامانة في النقل . (٤) التجرد (٥) محبة الحقيقة (٦) الشعور بالمسؤولية والتواضع . ويخلص من ذلك الى تقرير ان المزايا التي يفرضها التأريخ ليست في جوهرها عقلية فحسب بل انها لخلقية ايضا . (ما اصدقك !)

ومن ثم ينصرف المؤلف في الفصل السادس الى موضوع « التفكير التأريخي » فيفيد انه نظر في الانسان اذ لاتأريخ بدون انسان ، ولا تأريخ صحيحا الا بالكشف عن جوهر الماضي ، الماضي في الانسان والنفاذ الى هذا الجوهر انما هو الشرط الاول من شروط التفكير التأريخي الصحيح. وهذا لايكون بوضع الاحداث في حيزها الاجتماعي فقط ، بل يتناولها في حيزها الروحي ايضا .

ان هذه النظرة الى الماضي قد قويت على رأي المؤلف ، واتسعت في القرن التاسع عشر ، فأثارت بالتالي الحس التأريخي . ومن هنا كان ان دعا بعضهم القرن التاسع عشر « بالعصر التأريخي » ، حتى لقد دعا المؤرخ الالماني منكه Meinecke هذه النظرة الجديدة الى التأريخ: « اعظم ثورة روحية عرفها الفكر الغربي » .

ويرى الدكتور زريق اخيرا ان التفكير التأريخي يؤدي حتما الى تعليل الاحداث والحكم فيها .

وهو لذلك ينتقل بنا الى الفصل السابع ليحاول معالجة : « التعليل والحكم » اما التعليل فيراه امرا طبيعيا للانسان وليس باستطاعته ان يتجرد منه او ان يلقيه جانبا ، فلهذا التعليل عند مؤلفنا الممتاز ، شروط عديدة منها : صحة النظر ، والاستعداد الفكري ، والجهد الناشط المبذول والاحساس الدقيق بالمسؤولية ، واخيرا انطلاق الحرية الفكرية .

هذا بشأن التعليل ، اما من حيث الحكم فمن المؤرخين على رأيه ، من انكره ودعا الى تنكبه ، اذ المؤرخ ، في نظرهم ، مستنطق محقق ، لا قاض حاكم ، ومنهم من يتخذ نفس الموقف لسبب اخر هو : ان الحوادث انما هي وليدة عصرها وبيئتها ، ولا يمكن ان تكون غير ماكانت . وعليه فان كل حدث او جهد انساني انما هو امر نسبي ويجب ان لاينظر اليه الا « بالنسبة الى الحال او الاحوال التي تحيط به » .

غير ان الدكتور زريق يقرر غير ذلك فيقول : « ان الحكم ، امره كامر التعليل فكما تعلل الاحداث ، لابد من الحكم للاشخاص ان خيرا فخير وان شرا فشر . »

لكنه يعود ليتساءل ماهو مقياس الحكم ؟ الجواب : انه مقياس مزدوج ؟ المقياس الزمني النسبي ، والمقياس المتراكم خلال العصور . فلو اخذنا الحرية مثلا ، لوجدنا ان الاختبار الانساني الايجابي المتراكم ، قد برهن ان الحرية على مراتب ، ولعل اسماها مرتبة ، الحرية التي تكون في الوقت نفسه واجبا ومسؤولية كحرية التضحية من اجل الغير .

وكذلك التقدم فانه على مراتب فهناك تقدم مادي ، واخر فكري وثالث نفسي . فهذه القيم في الكرامة الانسانية ، تؤلف في مجموعها خلاصة الكسب الانساني وجوهره . وقيمة الافراد او الفئات او الشعوب في التاريخ ، انما هي في مبلغ اسهامهم بهذا الكسب كما ونوعا ، وبنسبة ماحققته لنفسها وللانسانية جمعاء من معاني الكرامة الانسانية .

وذلك واضح ، كما يستطرد الدكتور زريق ، في اننا نصف بعض مآثر الشعوب بأنها خالدة اي انها قد تجاوزت بقيمتها الزمان والمكان.

وعليه فالحكم ، التأريخي الكامل ، انما يأتي نتيجة للمعرفة المتزنة ، الصادقة بحب ، الناقدة بتسامح ، وبهذا يغدو الحكم من اهم عناصر التفكير التأريخي ومن افضل ثماره .

وما ان انتهى الدكتور زريق من الفصل السابع هذا ، حتى يتقدم الى مايليه ليعالج موضوع : « الثقافة التأريخية » وهي ـ في رأيه ـ « خلاصة مايجنيه الانسان من جهده في استكشاف الماضي ، وهي تتكون من عناصر عدة : (١) معارف متنوعة ، تتناول حوادث الماضي والروابط بينها او عللها وآثارها (٢) ملكات عقلية ، تتولد بفضل الجهاد لاكتساب تلك المعارف فضوابط تضمن لها السلامة ودوافع تعمل لاستمرار نموها وزيادة توسعها . (٣) البواعث النفسية والفضائل الخلقية التي تنميها هذه الثقافة في الانسان وتطبع شخصيته بها .

اما بشأن الثقافة التأريخية وأثرها المنشود فيقول : « ان الانسان ابدا يسعى ، ويجد لسد حاجاته الطارئة والدائمة ، ويأمل ويقدم،ويخطط ويبني لنفسه ، ولاولاده ولقومه ، ولانسانيته ، فيعمل لدنياه كأنه يعيش ابدا ولاخرته كأنه يموت غدا .

ومن مميزات الثقافة التاريخية عند الاستاذ زريق انها توسع افضا الاختبار وتعمقه وتفدو سبيلا لادراك الذات وبالتالي لمعرفة النفس ومن هذا تبرز صفة الاصالة في الافراد والشعوب .

على ان التجدد والتقدم لا يكونان صحيحين ودائمين ، الا اذا لازم شعورنا بقيمة الماضي ، شعور نقد للذات وللماضي . والثقافة التاريخية كما يقرر الدكتور اداة انطلاق وتحرر ، ونستطيع ان نلخص جميع هذه الميزات ، بما يكسبه الفرد بفضلها من « الحكمة » .

ومن هذا ننتقل الى الفصل التاسع وموضوعه : « صنع التاريخ » وهو يقوم عند المؤلف على ذلك العمل الذي يخلف اثرا قويا بينا في مجرى التاريخ ، على ان قوة هذا الاثر تظهر في الاعمال الانسانية ، وللعمل التاريخي ايضا متطلباته من : صحة الاحساس بالحاضر ودقته ، والاحساس الصحيح يساعد على التمييز بين المشكلات العديدة التي تجابه صاحبه .

ومن صفات هذا الانسان الفاعل المبدع ، تطلعه الى المستقبل واقدامه عليه .

على ان العمل التاريخي المبدع المنبثق من احاسيس الحاضر ورؤى المستقبل يظل ذا صلة بالماضي ، بل هو النتاج الصحيح له .

وصانع التاريخ في الواقع ، الابن الحقيقي لذلك الماضي .

فصانع التاريخ يشعر بقدرته على الاختيار ويكون مستعدا لتنفيذ اختباراته مع بقائه مقيدا بحدوده ، وشاعرا بانه هو ذاته خاضع لحكم التاريخ .

ويحسن هنا ، على رأي الاستاذ زريق ، ان نذكر دائما ان ليس المبدع في التاريخ ، القائد والسياسي وحدهما ، بل هناك العالم والاديب والفيلسوف ايضا .

واخيرا يختم الدكتور زريق سفره القيم بالفصل العاشر : « نحن والتاريخ » فيعالجه تحت موضوعات اربعة :

١ ـ وضعنا الحاضر : وهو يقوم في رأيه ، على موقفنا من تاريخنا بوجه خاص ومن التاريخ الانساني بوجه عام . والجدير بالملاحظة ان الموقف الذي يتخذه الفرد او المجتمع من تاريخه انما يرتكز على القوى والمشكلات التي تجبهه في حاضره وعلى الغايات التي يرسمها لمستقبله .

ولما كان المجتمع العربي اليوم في طور انبعاث وتحرك ، فقد برزت نقمة عارمة على التحكم الخارجي ، وعلى الاستعمار الاجنبي ، فنشأ من ذلك شعور عندنا بان السبب المهم لضعفنا وسوء حالنا انما هو تفرقنا وتشتتنا وتبعثرنا ، فكان لابد لنا ، والحالة هذه ، من ان ننزع الى جمع الشمل وتعزيز الاتحاد فيما بيننا .

وهذا الاتجاه ، كما يقول الاستاذ ، اخذ عندنا بالازدياد والانتشار وهو مرتبط بتطورنا الداخلي في المجتمع . ثم ان التحرر السياسي والاتحاد دعوتان تحمل لواءهما فكرة القومية العربية .

على ان القومية تتطلب : اولا : علمانية الدولة لكي تتاصل جذورها ،وهي تتنافى ايضا مع الاقطاع ، وتستلزم تطورا اقتصاديا مبنيا على الالة وتطورا اخر اجتماعيا ينشأ عن انتشار العلم والمعرفة وعن تحرير المواطنين من النزعات القبلية والطائفية والاقليمية . ولا ينبغي ان يفوتنا ان نذكر ان هذا التبدل في مجتمعنا انما يجري في وسط عالم يتبدل ، تصطرع فيه التيارات المختلفة ، مما يستدعي انتباهنا اليه والعمل على مواكبته ايضا .

ب ـ التاريخ العبء والتاريخ الحافز : وفي هذا الصدد يؤكد الاستاذ زريق انه من الخير لنا ان يكون تاريخنا حافزا لنا ، لا عبئا علينا . لذلك يقرر انه من الخطأ ان نبدأ دراسة التاريخ العربي بعرب الجاهلية ، دون ان نفي الشعوب السابقة لهم حقها من الاهتمام والعناية ، او بدون ان نطلع على المدنيات التي قامت قبلهم او عاصرتهم .

ج ـ حكمنا في التاريخ : وهنا يقرر مؤلفنا ان الادراك الصحيح للتاريخ ينتهي الى الحكم فيه اي الى الحكم فيما يجب التمسك به من عناصره ، وما يجب ان نتفلت منه ونثور عليه ونتخطاه . والعناصر الصحيحة هي ماكان طابعها الابداع واما العناصر الفاسدة فهي ماكان طابعها التعطيل ، تعطيل قابليات الفرد او المجتمع للتقدم .

ويتجلى هذا الابداع في قابلية صاحبه الى التحرر ، واكتساب الكرامة والحرية . وللحرية وجهان : احدهما سلبي والاخر ايجابي . فالاول يتمثل في التفلت من القيود التي تفرضها قوى الطبيعة بكل مافيها من مظاهر بينما يتجلى الوجه الايجابي في احراز الحرية على اطلاقها .

وتبعا لهذا يلخص الدكتور زريق اهم المقاييس التي بها نقدر الابداع والتقدم في حضارة من الحضارات بما يلي :

١ ـ مقدار مابلغته هذه الحضارة من تفهم لاسرار الطبيعة .

٢ ـ مقدار الذخيرة التي حصلتها من العلم النظري والاجتهاد الفلسفي الرامي الى ربط نتائج هذا العلم وسواها من الاختبارات الانسانية ، بنظرات شاملة معللة للكون والحياة .

٣ ـ مقدار ما اكتسبته هذه الحضارة من تطلعها الى رؤى الجمال وسعيها لاقتناص صوره وجهدها للتعبير عنها .

٤ ـ مقدار ماوعت هذه الحضارة باختبار ابنائها الروحي وجهادهم النفسي من مراتب الخير وغاياته .

٥ ـ مقدار ماحققه هذاالابداع من نجاح في رفع مستوى المعيشة المادية وفي مكافحة الطغيان وفي احراز الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية .

ويختم المؤلف هذا الموضوع بالتقرير التالي :

« ومن الواضح ان هذا التقييم لحضارة ما ، لايكون صحيحا الا اذا نظرنا الى تراثها من ضمن نطاق التراث الانساني الاوسع .

د ـ حكم التاريخ فينا :

ومن رأيه هنا ان ادراك الماضي يؤدي الى الحكم فيه . والحكم في التاريخ ضرورة قومية ومزية فكرية ، وان التاريخ ليحكم فينا اردنا ام لم نرد . واخيرا يقرر قائلا : ان حكم التاريخ هنا ، معناه حكم الاجيال القادمة كما للماضي ايضا حكمه .

وحكم التاريخ بالنتيجة يكون على مقدار ادراكنا ان للحياة قوانينها .

وبعد فارجو ان اكون قد استطعت ان اقدم بهذا التحليل الموجز تعريفا بكتاب قيم صدر عن مفكر فذ ، عرفناه حتى الان ، معلما ناجحا ومربيا فاضلا ومؤرخا ممتازا . وها نحن اولاء نكتشف فيه اليوم فيلسوفا مبدعا وعالما اجتماعيا مصلحا .

فالى الراغبين بالنظر فيماتعانيه الثقافة التاريخية عندنا ، والتعرف الى مشاكل عالمنا العربي الاجتماعية ، وطرق معالجتها من وجهة نظر التاريخ نزف هذا السفر فهو ولا شك ، في طليعة المؤلفات التي ظهرت

في هذه الحقبة بالذات من تاريخ نهضتنا ، هادفة الى وضع مناهج اصلاحية لها .

وان كان من شيء نلفت اليه عناية زريق لاستدراكه في الطبعة المقبلة ، فهو ان لايبقى الكتاب عاطلا من ثبت للمصادر والمراجع ومن فهارس علمية . وذلك تسهيلا لما يستطيع ان يجنيه المطالع بفضلها من فوائد جمة .

واخيرا لايسعنا الا ان نعرب عن عظيم تقديرنا لجهود الإستاذ الدكتور زريق ، والاعجاب بما يقدمه من نتاج فكري ، تحف به دقة العلم وعمق البحث وحسن الاداء ومحبة للحقيقة مع التزام النزاهة .

وانا لنستزيده من مثل هذه الثمار الشهية الطيبة ، حفظه الله وأبقاه ذخرا للعلم وحمى للعروبة ضد المتنكرين لها . وما اكثرهم في هذه الايام.

الدكتور زكي النقاش

شعـراء مجددون

بقلم مصطفى عبد اللطيف السحرتي

***

هذه الدراسة القيمة التي تناولت سبعة شعراء من مصر والسودان وتونس هي امتداد عميق لتلك الدراسات التي قام بها السحرتي منذ كتابه « الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث » ان الانفعالات النفسية عند التيجاني والشابي وناجي وابي شادي كانت في مستوى حاد ، متلاطم ، لان اغلب هؤلاء قد سبق زمانه ، فاصطدموا بالبيئة الجامدة التي لم تحاول فهم روحهم الوثابة ، فانتقلوا الى عالمهم الرومانسي المضمخ بعبير الرؤي والاحلام ، ففنوا هناك اروع الامهم واحلامهم المثالية التي تبحث عن يوتوبيا جديدة ، ومع ذلك لم يقطعوا الصلة بينهم وبين قومهم بل ان شعرهم كان تعبيراعن الانسان العربي لا كما هو في لاحركيته وسراديب لياليه المعتمة بل كما ينبغي ان يكون انسانا حضاريا مثقفا يلائم بين نفسه وبين مخصبات البيئة الحديثة .

والدراسة القيمة التي بين ايدينا في « شعراء مجددون » هي طراز فريد من الدراسة السيكلوجية الصادقة ، فأغلب هؤلاء الشعراء قد صادقوا المؤلف في طريق الحياة حقبة طويلة من الزمن كافية لاعطاء الكاميرا اللاقطة كل ملامح الصورة في اللوحة ، ان كل خلجة وكل انفعالة، وكل لفتة هي عملية توصيل « مقطر » يحتشد في ذهن الناقد المتاني ، الذي يجلس في برج المراقبة الدقيقة كالمحلل الكيمائي يرد العناصر الى اصولها او يخلق بين متنافراتها جوا من الالفة والانسجام الطبيعي .

والقاعدة هي ان ندرس الاخرين من خلال مطروحاتهم دون ان نتأثر بصداقة او عداوة لان اثارهم ان لم تحمل في طياتها الفروق الدقيقة بين فنان وفنان ، وان لم تكن تمثلا كاملا لوجودهم الداخلي فهي اذن احاد مكرورة من صميم نغم واحد وعلى النقد حينئذ ان يشجبها او يشير بوصلته نحو مكامن الزيف واللاخلق .

وهناك مدرسة اخرى في النقد تهتم بحيوات الخالقين ، وسلوكهم اليومي . وطرائفهم وطرائق معيشتهم الخاصة ، ثم تحاول بعد ذلك اقسار فنهم وتطبيقه على ماترسب في واعية الناقد فهي تحاول اخضاع الانتاج للسلوك « القبلي » حتى ولو اصبح السلوك « البعدي » عند الفنان مغايرا ، او في حالة تطور جديد ، والقاعدة هنا ، ان نجد خيطا يربط بين انتاج الفنان وسلوكه ، لابد ان نجد هذه اللاءمة ، لا ان نحاول ايجادها بخلق فروض وهمية لاتمت الى الواقع بصلة .

وعلى كل فانه لو تيسر للناقدان يخالط الفنان المنقود فيدرس حياته بجانب دراسته الواعية لانتاجه فلا شك ان ذلك سيسهل مهمة الناقد ليختصر الطريق الى جزر الحقيقة النائية ، ومن ثم يجد المبررات قريبة من متناول يده في ايجاد بعض الظواهر التي تلفت الانظار لظاهرة الموت في شعر الشابي الذي يسوقه في شكل محبب بعد ان يخلع عليه كثيرا من السمات الانسانية الشفافة وكظاهرة وجود الافعال الرباعية المضعفة وكثرة السينات التي توحي بالتمزق والتوتر النفسي عند التيجاني يوسف بشير ، ولقد صدق السحرتي عندما عد التيجاني من الشعراء الذين الجموا عاطفتهم بالفكر والارادة ، واذا اردنا ان نقوم بعملية التعرية عن مساحات هذه النفس التي تصطك في جوانبها اراء ابن رشد وابن سينا والغزالي واراء مدرسة الاسكندرية واصطراع الفكر المثالي الهليني، لنعرف مدى الانفتاح الذي وصلت اليه والمنطلق الفكري الذي لامست افاقه ، ولنقارن بين حمولتها من المعرفة ، او حمولتها التي كادت توصلها الى شاطىء فلسفي محدد المعالم والسمات وبين البيئة الجامدة في عام ١٩٢٤ ، البيئة الدينية ذات التقاليد العريقة والمثل النمطية الموروثة التي لاتعرف التبديل ، ادركنا لماذا كان الفكر والارادة عاملين يغلفان شعر التيجاني ، ولكن التيجاني نجح الى حد بعيد في المزاوجة بين عمل العقل وعمل العاطفة ومع ذلك كان ينتاب الشاعر التيجاني نزوع متمرد حسب طبيعته الرومانسية الحالمة حتى على التقاليد « الطوبائية » حين يقول :

آمنت بالحسن بردا وبالصبابة نارا
وبالكنيسة عقدا منضدا من عذارى
ايمان من يعبد الحسن في عيون النصارى

والايمان بالكنيسة هنا او نزعة اتحاد الاديان كم اثارت عليه الرأي العام الرجعي آنذاك وكظاهرة امتزاج نفسية ابي شادي هذا الرائد الخالد بالطبيعة لا كمجرد صور ومرئيات منقولة نقلا شريطيا ساكنا ولكن بتحريكها ، واعطائها انفعالية مقابلة ، ومبادلتها صداقة بصداقة مما يوصلنا في النهاية الى اصالة النزعة الانسانية في شعره . ولعل لغة الخط والظل واللون التي كانت احدى وسائله للتعرف على كينونة هذا العالم الحسن .. احدى القنوات التي رسبت في نفسه قيم الحق والحب والخير والجمال. والصداقةالكبيرة عنده شيء فطري فلا يهمه ان يقرأ ديكنز وحول رأسه تطن جماعة النحل في شكل حلزوني ، واسمع معي هذه الابيات الانسانية التي تعطي صورة لنزعته الانسانية الصادقة :

محال ان تحاول هدم حبي وان لم الق بين الناس حبا
صفحت عن الخصوم وان أساءوا وكادوا واعتبرت الكل صحبا

أمطار سوداء

صديقتي ، المساء ينام منطرحا على بابي
والـواح الظـلام السود تسقط عند عتبته
وريـح تجهض الامطار في شباكي الكابي
تجـرح صمته ، تبكي ، تولول ، ثم تنسحب
وتترك غرفتي السوداء طافية على الماء

***

وتومض في سفوح الليل نجمات شتائيه
قطيع خلف اخر ، خلف اخر ، خلف قطعـان
ترف على مروج رسالة زرقاء اغرق ناظري فيها
وتقطف مقلتي حبات ضوء من سواقيها ؟
« حبيبي لن يهدم كوخنا المطر ..
« مدينة حبنا الخضراء مشرعة على الشمس
« مسورة ، يموت الليل دون جدارها ، والريح ، والموت
« وينتحر الخلود على ذرى اعتابها الخضر ..
« مدينة حبنا ، أغنية تتسلق الاضواء بين عرائش الشمس
« مدينتنا سفائن مشرعات في بحار الوعد ، لاترسي
« محملة حكايا عن جزائر لم يسافر نحوها احد
« تموج كنوزها ، وتفيض بالالوان دنياها
« مدينتنا ، اله الحب يرعاها ... »

***

وشيئا بعد شيء ترتمي النجمات في الظلمة
وتهوي في مدى عيني شلالات افكـار
وتنهمر السيول ، تعربد الامطار في وديان احزاني
وتغرقني بحار العتمة السوداء حينا ، ثم تقذفني
الى عمـــلاق اعصـار
اشم بضوئه المبحوح كل روائح العـدم
وألمـح في يديه مدينتي الخضراء اطلالا
خرائب ينعب الطوفان في ساحاتها السود
يغوص الهها الشرير في أوحالها ، ويمد ساقيه
على أشلائها ، ويعب من دمها ..
ويرقص في خرائبهـا
آلـه مدينتي الشرير يرقص في خرائبها

***

صديقة ، طفلنا مازلت من عيني ارضعه
أغذيـه دمي ، أعطيه أيامـي
ولكنـي اخـاف الليل ان يقسو فيخنقه
فان نجومك الخضراء لم تفتح لي
نجومـك ياصديقة لم تشق الدرب في العتمه
نجومـك اغرقتها لجة الظلمـه
وماتت عنـد شباكـي
يقهقه في جنازتها آله الغاب ،
يحفـر قبرهـا بيديـه ...
يطمـرهـا ..
ويمضي تاركا لعناته السوداء في بابـي

دمشـق

محمد عمران

لهم اسفي وأشفاقـي وقلبـي وان لم يعرفوا اسفا وقلبـا
ومهمـا خلتني اشكـو بيـأسي ذنوب الناس خلت اليأس ذنبا
سيطوينا الزمـان وكـل ذنـب سيمحوه الزمان .. وان تأبى

اذا فالسحرتي قد جمع بين المذهبين ، دراسة الظاهرة الادبية مـن خلال الظاهرة النفسية دراسة ممتزجة ، وهو يتخذ من السمات التركيبية والسلوك المشاهد معبرا للوصول الى حقيقة الفنان المحجوبة عن عيوننا ، ولهذا جاءت دراسته حية صادقة وخاصة دراسته عن الشاعر الوجداني العظيم ناجي وابي شادي ومطران وجليلة رضا . اما دراسته عن ابـي القاسم الشابي شاعر تونس الخضراء والتيجاني يوسف بشير فانهـا دراسة جاءت ممتازة لسببين ، السبب الاول حصيلة المعلومات عن حيـاة هذين الشاعرين المتقاربين سنا وفنا لدرجة انهما فارقا الحياة بداء السل الذي اخترم قفصي ضلوعيهما في سن مبكرة حوالي عـام ١٩٣٧ .. والسبب الثاني اتصالهما بمجلة ابولو ، والسحرتي احد كبار اعضائها الذين واكبوا ميلاد النهضة الشعرية في مصر والمهجر ..

الا اننا نأخذ عليه عدم ذكره في هذه الدراسة الشاعر النابغة محمـد معطي الهمشري وهو ثالث ثلاثة يكمل رأس الزاوية المكونة من التيجاني والشابي والهمشري ، وهو ايضا احد الرواد الذين غذوا ابولو بروائعهم وخاصة ملحمة الاعراف وهي هضبة ارجوانية شامخة من الشعر الرومانسي الباقي والنارجة الذابلة وغيرها ، على اننا نرجو من المؤلف ان يكـون كتاب « شعراء مجددون » سلسلة متلاحقة .

القاهـرة

محيي الدين فارس